السلطة السياسية والمقدس

الأستاذة سلوى بوقير

جامعة عبد الرحمان ميرة ببجاية

تمتاز السلطة السياسية بكونها محدودة القوى، ولا يمكن أن تكون ذات قوة مطلقة، وتبعا لذلك لا تستحق السلطة المطلقة، وما "السيادة" إلاّ فكرة خيالية، ولا وجود لها على الإطلاق، وذلك مهما كانت طبيعة الشخص الحائز للسلطة السياسية، لأن من البديهي أن تكون سلطة الإنسان نسبية، طالما كانت قدراته نسبية، وعليه لابد أن تكون الطاعة إزاء السلطة السياسية نسبية.

ومما لاشك فيه أن غريزة الطاعة هي غريزة بشرية، وهي دليل قاطع على وجود قوة مطلقة تطاع ولا تطيع، مثلما يدل الشيء المصنوع على وجود الصانع، ولا يمكن تصور وجود غريزة الطاعة عند صاحب السلطة المطلقة، لأنه إذا أطاع، فذلك يعني وجود قوة تعلو عليه وتفوقه في القوة وبما أن قوة الحكام نسبية ومحدودة بقدراتهم البشرية، لذلك تكون الطاعة إزاء قواهم نسبية أيضا. فلا تتوفر القوة المطلقة إلاّ في الخالق "الله" سبحانه وتعالى، الذي يطاع ولا يطيع، « بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »[1].

يعترف الإنسان بقوة الله المطلقة عندما يبذل كل جهوده لتنمية قدراته وقواه، إلاّ أنه يكتشف دائما نسبية هذه القدرات والقوى، مثلا الفنان الذي يحاول أن يرسم صورة معبرة عن براءة الطفل فمهما بلغت اللوحة درجة كبيرة من الجمال والإتقان، إلاّ أن الفنان يدرك جيدا أنه لم يستطع ولن يستطيع أبدا مضاهاة الطبيعة والجمال الطبيعي لبراءة طفل حقيقي، أو مثلا الشخص الذي يمتلك مزارع كبيرة وحقول عديدة، قد تتلف مزروعاته في ليلة

1- سورة البقرة، الآية (117).

واحدة، بسبب إعصار شديد، لأن قوته الاقتصادية تخضع لتقلبات الجو ولتقلبات السوق.

أليست الأمراض التي يصاب بها الإنسان، والموت والخوف من الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والفيضانات والخوف من الجوع والعطش وقلة المال، نقاط ضعف في الإنسان تدل على محدودية قدراته؟ فكما يدل "الضعف" على وجود"القوة" باعتبارهما أضداد، والضد يدل وجود ضده كما أن "المحدود" يدل على وجود ضده، وهو "الكامل"، و"النسبي" يدل على وجود ضده "المطلق".

فإن كان الإنسان محدود القوى، فذلك يعني وجود ضده "الكامل"، وبما أن كل ما في الطبيعة محدود القوى، فالكائنات الحية تموت وتمرض...، ولا يمكن أن تكون كاملة القوى، والشمس دائرة بين الشروق والغروب، والقمر بين الطلوع والمغيب، والأرض دائرة بين الخصوبة والبوار...ولذلك لا توجد قوة كاملة في الطبيعة، ولا يملك هذه القوة المطلقة إلاّ الله سبحانه وتعالى الخالق للطبيعة. ويتجلى ذلك في كون هذه الأخيرة محدودة القوى، فهي إذا ضعيفة وتحتاج إلى قوة أعظم من تلك التي تملكها تستند عليها، وتطلب منها الحماية، ويتم لها ذلك بفضل عبادة الله والإكثار من الدعاء والرجاء. وعليه فإن حاجة الإنسان إلى الله أبدية، ولا يمكن أن تنقطع أبدا، لأن نقاط ضعفه تلازمه من ميلاده إلى وفاته، مما يجعل إحساسه بالحاجة إلى الحماية من القوة المطلقة "الله" يلازمه طالما لازمته نقاط الضعف. قال الله تعالى : «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب[1]». يناجيه الإنسان ويتضرع له،خاصة عندما تحل به الكوارث والأخطار، فاستحق الطاعة المطلقة، « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين[2]». «قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم

1- سورة البقرة، الآية (165).

2- سورة الأنعام، الآية (63).

تشركون[1]»

وقد تتجلى حاجة الإنسان إلى القوة المطلقة، أكثر عند مطالعة ما كتبه الفقهـــاء في وصفهم للسلطة السياسية، وعلاقتها بالمقدس، يقول "بيير باكتي pierre Pactet" إن سبب تقديس السلطة السياسية هو أنها لا تمارس فقط على الإنسان انبهارا لما كل يتجاوزه بصفة مطلقة، بسبب طابعها العام والدائم، منذ ظهور الإنسانية، بل تواجه المصير في مكانه مع كل ما يحتويه مما هو فوق الطبيعة... فالخوف من القوى الخفية التي تبدو خاصة تسكن لاوعـــي الناس، ويؤكده العالم الخارجي بعنفه المتعدد الأوجه..."[2]

وكل النظريات التي بحثت في مسألة السيادة أرادت أن تجعل من صاحب السيادة شخصا مقدسا، "فروسو" أبعد القانون الإلهي من المدينة، ورأى بأنه مقبول فقط في الأنظمة الدينية، واستبدله بـــ"دين مدني" وإجباري للجميع، أي قدسية العقد الاجتماعي والقوانين، وكل واحد حر بصفة كاملة في الإيمان والاعتقاد بما يعجبه، طالما أنه كمواطن يخضع لقواعد وأوامر "الدين المدني"[3]. واعتبر الشعب الفرنسي ـــ إبان الثورة- أن إعلان حقوق الإنسان هو "إنجيل" سياسي يتضمن حقائق أبدية Evangile politique.

والدولة حسب الفيلسوف الألماني "هيجل" شخص مقدس، لأنها هي "الروح الجرمانية" أي "روح الشعب الجرماني"، وتحتاج إلى تجسيد لها، لذلك كانت ألمانيا تبحث عن رجل يجسد روح هذا الشعب، فتبدو الدولة عند "هيجل" قائمة على عاطفة دينية، كما أن الإكراه الذي مارسه "هتلر" كان قائما على أساس ديني، أي خضوع الأفراد لروح الجماعة المجسدة في الفهرر[4]، ولهذا السبب يرى هذا الفيلسوف أن المهمة التاريخية للشعب

1- سورة الأنعام، الآية (64).

2- Pierre Pactet, «institutions politiques droit constitutionnel», 14eme édition, Masson / Armand colin, Paris, 1995, p (22).

3- Louis Gardet, « La cité musulmane vie sociale et politique », 3e édition librairie philosophique, 1996, P 114

4-Georges Burdeau, «Traite de science politique», tome (5), 3e edition I G. D. J, Paris, 1985 , p 506-507.

الألماني لا تتحقق إلا بالاستعانة بدولة مركزية ومتسلطة والرسالة التي يحملها الشعب الألماني للعالم، باعتباره الشعب المختار، تفرض عليه أن يكون متحدا ولا يترك الإيمان العميق بهذه الوحدة أي مجال لاحترام الإنسان أو الاهتمام بحقوق الأفراد، بل إن "الروح الجرمانية" هي التي تحرك الشعب الألماني، ولن تتجسد هذه الروح واقعيا إلا في إطار الدولة، ولا تنمو الحرية الحقيقية إلا في ظل الدولة الواعية لذاتها [1].

ويبدو جليا أن تقديس صاحب السلطة السياسية من هؤلاء المنظرين هو تعبير عن غريزة البحث عن الكمال في الإنسان، "فيسقط" هذه الغريزة على كل شخص يعتقد فيه الكمال، ويقول الفيلسوف "نيتشه" متحدثا على لسان الدولة : "لا يوجد هنالك أكبر مني على وجه الأرض، أن الإصبع الذي خلق النظام، إصبع الإله"[2].

ويعود أصل تقديس السلطة السياسية إلى مصر القديمة، حيث كان فرعون يمثل الله في الأرض في اعتقاد المحكومين، وكان الوحيد المالك لحق سلب الحياة عن رعية من رعاياه، ويعد حكمه حكم الله، وتنفيذه هو تنفيذ لحكم الإله، ثم انتقلت فكرة تأليه الحاكم إلى أوروبا عن طريق "يوليوس قيصر" الذي مكث في مصر، فأراد أن يكون ملكا مؤلها[3]. وفي العصور الوسطى ظهرت نظريات الحق الإلهي والتفويض الإلهي، والتي تمنح للحاكم السلطة المطلقة وطابع القداسة، ثم بعد ظهور فلسفة الأنوار، وقيام الثورة الفرنسية، وظهور الإيديولوجية الليبرالية التعددية، اعتبرت الأمة ثم الشعب فيما بعد شخصين معصومين من الخطأ، ومنحت لهما السلطة المطلقة وهو انتقال التأليه من الشخص الحاكم إلى الشخص المجرد المتمثل في الأمة أو الشعب عند المفكرين الفرنسين، أو الدولة عند المفكرين الألمان، أو طبقة البروليتاريا عند الماركسين.

1- IBID, P504.

2-Nietzshe «ainsi parlait zarathoustra», librairie générale française 1999, P 66.

3- محمد سعيد العشماوي " الإسلام السياسي " موفم للنشر، 1990، ص 36.

و"القدسية" هي صفة ينفرد بها الله سبحانه وتعالى، إذ أن من بين أسماءه جل جلاله "القدوس"، ويعرف العلماء هذه الكلمة بأنها تعني "المطهر من العيوب"[1]. ويشرح الأستاذ "فريجوف شيون" معنى كلمة "مقدس"بأنه"... هو أولا ما يرتبط بنظام المفارقة، وهو ما يتحلى بطابع اليقين المطلق، وما يخفى ثالثا على إدراك العقل الإنساني العادي وملاحظته، ولنتمثل شجرة لا تملك أوراقها أية معرفة مباشرة بالجذر، ولذلك فإنها تناقش مسألة ما إذا كان هذا موجودا أم لا أو ما هو شكله في حال الإيجاب، ولو قدر حينئذ لصوت صادر عن الجذر أن يقول لها بان الجذر موجود وأن شكله كذا، لكان هذا البلاغ مقدسا، إن "المقدس" هو وجود المركز في الأطراف والحواف، الثابت في المتحرك، والكرامة بشكل أساسي تعبير عنه، ففي الكرامة أيضا يظهر المركز في الخارج، ويشف القلب من خلال الحركات، و"المقدس" يدخل على النسبيات صفة الإطلاق و يضفي على الأشياء الزائلة نسج الخلود"[2].

ولاشك أن كل الأشخاص الذين أضفيت عليهم صفة القداسة غير مترهين عن العيوب، والله سبحانه وتعالى هو الوحيد الذي يمتلك هذه الصفة، لأن الإنسان مجبول على فطرتين متعارضتين فيما بينهما هما: غريزة الطاعة وغريزة السيطرة، فهو من جهة قابل للطاعة، ومن جهة أخرى يميل إلى حب التسلط والسيطرة، مما يجعل كل واحدة من هاتين الغريزتين تحد الأخرى وتمنعها من أن تكون مطلقة.

وعلى هذا الأساس، من غير المعقول أن يطيع إنسان إنسانا آخر بصفة مطلقة، وفي نفس الوقت يريد ويتمنى لو كان يمتلك القوة الكافية كي يتسلط عليه ويفرض سلطته عليه، ولهذا السبب وجد التنازع على السلطة منذ ظهرت البشرية على وجه الأرض، وأدى ذلك إلى إزهاق الأرواح والممتلكات ونشوب الحروب، لأن الإنسان لا يخضع لإنسان آخر إلاّ إذا شعر بالضعف والحاجة إليه، وبمجرد إحساسه بالقوة وعدم الحاجة ينقلب الخضوع إلى تمرد

1- الشهيد حسن البنا، "العقائد"، دار الشهاب، باتنة، ص 17.

2- فريتجوف شيون، "كيف نفهم الإسلام"، ترجمة عفيف دمشقية، دار الأداب، بيروت، ص 53-54.

ورغبة في التسلط، فينتزع السلطة من الأضعف منه، ولذلك فإن كل واحدة من هاتين الغريزتين تحاول إلغاء الأخرى، ويكون ذلك تبعا للظروف والأحوال وعلاقات القوى القائمة بين الناس.

ويتجلى هذا الصراع داخل العائلة، فتطيع الزوجة زوجها طالما كان يملك القوة والشباب وقد تتمرد عليه عند الكبر أو الضعف، فتصبح هي الآمرة والناهية في البيت. ويطيع الأبناء الوالدين طالما كانوا صغارا وضعافا ويحتاجون إلى رعايتهما، وما أن يبلغوا سن الفتوة والقوة حتى يتمرد الأبناء على سلطة الأبوين، ونادرا ما يحدث العكس.

ويظهر هذا الصراع على السلطة داخل القصور الملكية، وبين أفراد العائلة الملكية الذين يتنازعون على العرش الملكي، ويستعملون الدسائس والمكائد، ويرتكبون الجرائم في سبيل الحصول عليه، ولعل خير مثال صالح للاستدلال على ما تقدم هو تكالب الدول الغربية على اقتسام تركة "الرجل المريض"، أي الدولة العثمانية، بعد اضمحلالها ونفاد قوتها، ولقد كانت في الأزمنة الغابرة سفن الدول الغربية تدفع الضرائب والرسوم للدولة العثمانية عندما كانت في أوج قوتها وتسيطر على البحار والمضائق، أليس عجيبا أن تنقلب الطاعة إلى تسلط بعد مرور مدة زمنية معينة تحول فيه الضعف إلى قوة؟.

إن طاعة الإنسان المطلقة إزاء القوة التي يعتقد أنها مطلقة هي "العبادة" التي تعرف لغويا بأنها: "الخضوع والتذلل: أي استسلام المرء وانقياده لغيره انقيادا لا مقاومة معه ولا عدول عنه ولا عصيان له، أو هو: كل خضوع ليس فوقه خضوع"[1].

إن إحساس الإنسان بالنقص هو شعور فطري بوجود من يمتلك الصفات العليا، فالإيمان فطرة والإسلام عقيدة الفطرة، يقول الله تبارك وتعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[2] » ويقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: « كل مولود يولد على الفطرة وإنما

1- عبد المجيد الزنداني، "كتاب التوحيد، وقل هو الله أحد" منشورات دحلب، الجزء الثالث، ص (45).

2- سورة الروم، الآية (30).

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1]، ولهذا السبب، وجدت العبادة وآمن الإنسان بالدين – رغم اختلاف الأديان – منذ وجد على سطح الأرض.

ويؤكد المفكر "مالك بن نبي" أن الدين ظاهرة قديمة قدم الإنسان، فيقول في ذلك: "... مهما عدنا إلى أبعد ماضي تاريخي للإنسان، إلى أجمل مراحل الحضارة، وإلى المراحل الأكثر بدائية من تطوره الاجتماعي، فكانت هناك دائما علامة للفكر الديني،... فعلم الآثار وجد في كل مكان تحف استعملها الناس في الماضي لعبادة معينة... ويعتبر علم الاجتماع الإنسان حيوان ديني بشكل أساسي"[2]، ويعرف العرب "الدين" لغة: إلزام الانقياد، أو التزام الانقياد، أو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له[3].

ويشهد تاريخ المجتمع البشري اتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله، سواء كانوا حكاما مثل فرعون الذي قال للناس "أنا ربكم الأعلى". أم من رجال الدين الذين يحللون ويحرمون على الناس ما أرادوا بغير رضا الله تعالى[4]« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله و المسيح بن مريم [5] ».

ولذلك كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يختم رسائله إلى قيصر وغيره من الملوك بالآية الكريمة : « قل يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا، من دون الله » [6].

1-. يوسف القرضاوي، "الإيمان والحياة"، دار الشهاب، الجزائر، 1987، ص 48.

2-Malek Bennabi, « le phénomène coranique », S. E. C, Alger, 1992, P11.

3- حسن علي مصطفى، "نشأة الدين بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي – دراسة في علم الاجتماع الديني-"، مؤسسة الإسراء، الطبعة الأولى، قسنطينة، 1991م، ص (9).

4-يوسف القرضاوي، " الإسلام والعلمانية وجها لوجه"، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ – 1997م، ص 107.

5- سورة التوبة، الآية (31).

6- سورة آل عمران، الآية (64).

وقال ربعي بن عامر –رضي الله عنه– لرستم قائد الفرس: "إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده"[1].

ويعبر ذلك عن حالة نفسية في الإنسان عندما يبحث عن الكمال في حياته، فإما يعتقد بكمال خالقه، وبأن الحائزين للسلطة السياسية ليسوا مالكين لها، بل يخضعون لأوامر الخالق في ممارستهم لهذه السلطة، أو أنه يضفي الكمال على الحائزين للسلطة السياسية، فاعتبرهم مالكين لها. وهذا البحث عن الكمال هو أساس غريزة الطاعة، وذلك يؤكد على أن السلطة السياسية هي ظاهرة نفسية وفطرية أكثر ما هي ظاهرة اجتماعية وسياسية وقانونية، والمقصود بالبحث عن الكمال، حب الإنسان للقوة وعبادته وطاعته المطلقة للأشخاص الذين يعتقد فيهم توافر القوة المطلقة.

وأشار العلامة "ابن خلدون" إلى فكرة إقتداء المغلوب بالغالب، في مقدمته، فيقول: "المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به وذلك هو الإقتداء،... وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما، وما ذلك إلاّ لاعتقادهم الكمال فيهم... وتأمل في هذا سر قولهم، العامة على دين الملك، فإنه من بابه، إذا الملك غالب لمن تحت يديه والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بأبائهم، والمتعلمين بمعلميهم والله الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق"[2].

ولقد برهن علماء التربية في عصرنا الحالي صحة ما يقوله العلامة "ابن خلدون" عن تقليد و محاكاة القوي، فحسب هؤلاء العلماء، يمر الطفل في حياته بمرحلة يسمونها "فترة

1- يوسف القرضاوي، "الإسلام والعلمانية وجها لوجه"، المرجع السابق، ص 107.

2- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، المجلد الأول، مؤسسة الكتب الثقافية، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، 1996، ص 156. .

عبادة البطل" « héro – worship »، وتتحكم في الطفل في هذه المرحلة غريزة المحاكاة أو التقليد، فينظر إلى الشخص الذي يربيه، سواء أمه أو أبيه أو أستاذه على أنه مثله الأعلى، أي الكمال فيحاكيه ويتشبه به[1]، وما ذلك التقليد إلاّ مظهر من مظاهر غريزة البحث عن الكمال في الإنسان.

1- محمد كامل حسن المحامي، "عظماء الإسلام –عبد الله بن عمر –"، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص 23-24.